دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مع قديم الفلسفات في الإدارة العامة : نواحي المعرفة في فلسفة الإدارة العامة عند الصينيين القدامى
المصدر:	الإدارة
الناشر:	اتحاد جمعيات التنمية الإدارية
المؤلف الرئيسي:	الجلالي، عبدالفتاح رؤوف
المجلد/العدد:	مج 7, ع 1
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1974
الشهر:	يوليو
الصفحات:	89 - 101
رقم MD:	303590
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الإصلاح الإداري، الفلاسفة الصينيون، الإدارة العامة، الفلسفة الإدارية، قدماء الصينيون، كونفوشيوس، القوانين الوضعية، المعتقدات الدينية، الكونفوشيوسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/303590

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مع قديم الفلسفات فى الإدارة العامة

نواحى المعرفة فى فلسفة الإدارة العامة
عند الصينيين القدامى

عبد الفتاح رؤوف الجلالى

لم تتبلور الادارة العامة كعلم له أصول ومبادىء وتطبيقات الا فى القرن الحالى . وهذه الحقيقة لا تنفى حقيقة أخرى أن الادارة العامة كفلسفة وممارسة لها عراقتها فى تاريخ مدنية الانسان .. بل ان هذه المدنية تدين فى خلقها الى ادارة عامة واعية، وتحت عنوان « مع قديم الفلسفات فى الادارة العامة» يحاول الكاتب التدليل على هذه الحقيقة ، وقد نشرت له المجلة مقالين ، أحدهما عن المصريين القدامى ، والثانى عن العراقيين القدامى ، وفى هذا المقال يقدم الكاتب محاولة جديدة لاستخلاص بعض نواحى الفلسفة الادارية عند الصينيين القدامى .

عبد الفتاح رؤوف الجلالى

مدير الادارة العامة للتنظيم والتخطيط والمتابعة بشركة النصر للدخان والسجاير

سبق أن نشرنا له عدة بحوث كان آخرها « جوانب الفكر الادارى فى فلسفة العراقيين القدامى » نشر فى عدد يناير ١٩٧٤ العدد الثالث ــ المجلد السادس .

حينما ألف « ديورانت ول » كتابه عن « قصة المدنية » (The Story of Civilization) (١) اختار من بين أقوال فلاسفة الصين القدامى ، حكمة وردت فى خطبة « الدوق جو » (Duke of Shao) التى ألقاها أمام مليكه « لى سوانج » (Li-Wang) عام ٨٤٥ ق م ، حوت كل معانى الحرية ، التى يتطلع اليها أى شعب فى أى عصر من العصور ، ليحققها له حاكمه ، ان كان يعرف

(١) عندما ترجمت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب (Durant Will, The Story of Civilization) اختارت له عبارة « قصة الحضارة » . ولكننا نفضل أن تكون ترجمته « قصة المدنية » ، لان كلمة (Culture) قد استقر لها كترجمة فى اللغة العربية كلمة (حضارة) ، أما كلمة (Civilization) فالاصوب أن يحافظ دارسو الادارة العامة بالذات ، على ترجمتها فى العربية بكلمة (مدنية) ، وذلك حتى لا يختلط الامر بينها وبين كلمة (Culture) لان هذه الكلمة تعنى ، كما قال بحق الاستاذ الدكتور ابراهيم رزقانه : « كل انتاج للانسان مصدره العقل ، سواء كان ماديا أو أدبيا »

حقا قيمة أمانة الحكم وفلسفته ، ولقد وضع « ول » هذه الحكمة فى اطار مستقل ، احتل أبرز مكان تحت عنوان حديثه عن الصين القديمة .

هذه الحكمة لم تكن فى الواقع الا نصيحة من « جو » لمليكه ، رغب أن يقتدى بها فى حكمه ، اذ يقول له فيها « يعرف الامبراطور كيف يحكم ، اذا كان الشعراء أحرارا فى قرض الشعر ، والناس أحرارا فى تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحرارا فى قول الحق ، والوزراء أحرارا فى اسداء النصح ، والفقراء أحرارا فى التذمر من الضرائب ، والطلبة أحرارا فى تعلم العلم جهرة ، والعمال أحرارا فى مدح مهارتهم وفى السعى الى العمل ، والشعب حرا فى أن يتحدث عن كل شىء ، والشيوخ أحرارا فى تخطئة كل شىء » .

والحقيقة أن آراء فلاسفة الصين القدامى ، اذا ما تصفحها دارس الادارة العامة بعناية ، لا يمكن الا أن يحنى رأسه لغزارة المعرفة الادارية فى هذه الفلسفة ، والتى تعدد فيها الرأى ، حتى شملت نواحى كثيرة من الأضداد والمتلاحمات والمتوافقات ، التى استمرت مقبولة من الفلاسفة الذين جاءوا بعدهم ، ولا يزال يتناولها الجدل العلمى المعاصر فى مجال السياسة والادارة والاجتماع ، بكثير من التفنيد والتحليل .

ولا جدال فى أن علم الادارة العامة علم حديث ولكن لبنات معرفته قد وجدت منذ قديم الأزل ، وهو أمر نحاول أن نبرزه فى سلسلة بحوثنا المتتابعة ، تحت عنوان « وقفة مع قديم الفلسفات فى الادارة العامة » .

واذا كنا قد حاولنا فى بحثنا عن « الالتزام بالواجب عند المصريين القدامى » وبحثنا عن « جوانب الفكر الادارى عند العراقيين القدامى »، أن نشير الى نوعين من الفلسفة الادارية المبكرة ، التى جادت بهما اقدم مدنيتين فى الشرق الأدنى ، يجمع مؤرخو العلم على أنهما كانتا من أقدم مدنيات العالم(١) ، بل والكثير منهم يؤكد أنهما كانتا أقدم مدنيتين فيه(٢) ، فاننا نحاول فى هذا البحث أن نتناول بالتحليل فلسفة الادارة العامة فى مدنية ثالثة من مدنيات الشرق القديم ، تعتبر بلا شك من أقدم مدنياته(٣) ، ولكنها لا تقع فى المنطقة القريبة من أوروبا التى لقبت بالشرق الأدنى (Near East) التى تضم مصر والعراق ، بل هى فى ابعد مناطق الشرق القديم عن أوروبا ، وهى المنطقة التى لقبت بالشرق الأقصى (Far East)

واذا كنا نبدأ فى هذه المنطقة البعيدة عن أوروبا ، بتحليل الفلسفة الادارية لاهل الصين القدامى ، انما سببه أن الصين القديمة هى التى يطلق عليها العلماء « جنة المؤرخين » .

ولقد اعتنى الصينيون — منذ عصور قديمة — بتدوين تاريخهم على قطع من عظام الحيوانات(٤) حيث عرفوا الكتابة فى عصر مبكر مقارب لمعرفة

ولذلك فهى عبارة عن « تفاعل جماعة بشرية معينة ، مع بيئة طبيعية معينة ، فيكون انتاج هذه الجماعة صدى لامكانيات البيئة الطبيعية ، وقياسا لمدى جهد الناس فى الافادة من هذه الامكانيات ... » أما كلمة (Civilization التى نصر على ألا تترجم فى العربية الا بكلمة (مدنية) ، فهى كما يسترسل الدكتور رزقانه تعنى (طريقة الحياة) . وهى بلغتنا العامية تعنى (الموضة) (Mode) . وهى تشير الى « أعلى مستوى عالمى تصله الحضارة (Culture) فى اقليم معين ، بحيث يكون علو هذا المستوى باعثا للاقاليم الاخرى على نقل بعض مظاهره اليها » . واذن فبينما لكل اقليم حضارة ، ولكل شعب حضارة ، فليس لكل شعب مدنية ، لان الحضارة لم تصل الى مرتبة المدنية ، الا فى أقاليم قليلة ، وعند شعوب قليلة » « مقدمة كتاب حضارة مصر والشرق القديم — دكتور ابراهيم رزقانه وآخرين » . من هنا فعندما نقول أن المدنية فى أى بلد قديم ، لابد وأن يكون قد خلقتها ادارة عامة واعية ، نعنى بأن هذه المدنية قد ارتقت بالشعب الذى عاصرها الى المستوى الذى يكون له فى الحياة طريقة مثلى قد أدار بها نفسه ، فكانت هذه الطريقة وجهة انظار الشعوب الاخرى فى زمنه . لهذا نحرص نحن باحثو الادارة العامة على أن نؤكد للفظ civilization ترجمته فى العربية بلفظ « مدنية » .

(١) يرجع الى F. Sherwood Taylor, Science Past and Present, 1949, p. 5.

(٢) يرجع الى André Aymard et Jeunine Auboyer, Histoire Générale des Civilisations, Tome I, 1963, p. 11.

(٣) يرجع الى The World Book Encyclopedia, U.S.A. Volume 3.

(٤) Ibid, p. 387.

المصريين والعراقيين لها ، ولهذا انشغل الانثروبولوجيون فى تحديد أى من المناطق الثلاث كانت البادئة باختراع الكتابة ، التى ساعدت شعوبها الثلاثة على تثبيت مدنياتها . والاجماع حاصل على أن الشعوب الثلاثة قد عرفوا الكتابة فى وقت متقارب(١) ، وان كان بعض الباحثين قد قاموا بمحاولات عدة ، لاثبات أن الكتابة الصينية القديمة ، قد اشتقت من الكتابة الهيروغليفية المصرية(٢) ..

بل حاول بعضهم أن يثبت أن الصين فى قديم الزمان ، أنما كانت مستعمرة مصرية(٣) ، وكل ذلك لم يقلل من اعتزاز الصينيين بقيمهم الانسانية ، وبأصالة حضارتهم ، وعلو كعب مدنيتهم ، وبأنهم شعب يفوق ما عداه من الشعوب فى انتاجه الفلسفى(٤) ، ولهذا عدوا كل أجنبى عنهم ليس الا بربريا (Barbarian) لا يمكن أن يعلو فى تفكيره الى مستواهم الذهنى(٥) .

وعموما فقد كانت قطع العظام بذلك هى المادة الرئيسية التى استخدمها كتاب الصين القدماء ، وهى المادة المقابلة لأوراق البردى عند المصريين القدامى ، ولألواح الطين عند العراقيين القدامى ، ولقد حافظ الزمن على كل مادونه الصينيون القدامى من أحداث وآراء على قطع العظام هذه ، فكانت أكثر مقاومة لعوامل الدهر من بردى المصريين وألواح العراقيين(٦) ، كما أن الصينيين استخدموا فى الكتابة بعد العظام ، البرونز والحجر والفخار الصينى ، فلما حان وقت استخدامهم لورق الكتابة ، كان تاريخهم الميثولوجى جاهزا لتدوينه عليها كاملا غير منقوص ، لهذا قال العلماء بحق عن الصين انها (جنة المؤرخين) .

واذا كانت الصين القديمة جنة للمؤرخين عامة، فانها لا شك جنة وارفة الظلال غزيرة الأنهار لدارسى الادارة العامة بالذات ، اذ كيف لا تكون كذلك ، وقد دون الصينيون تاريخهم الادارى الميثولوجى منذ أكثر من مليونى عام ، بل على وجه التحديد منذ عام ٢٢٩٫٠٠٠ ق.م(٧) ، حيث

(١) George Sarton, A History of Science, Vol. I.

(٢) ربما يكون ذلك لان المصريين والصينيين بدأوا الكتابةباستعمال الصور للتدليل على أشياء أو أفكار ، فتشابهت فى الكتابتين « صور الشمس والقمر والجبل والماء والمطر والانسان والطير ... الخ » يرجع الى
Won Kenn, Origine et Evolution de l'Ecriture hiérogliphique et de l'Ecriture Chinoise, 1939.

(٣) وقد حقق ذلك فى القرن الثامن عشر الاستاذ « جوزيفجوجين » حينما انبهر علماء أوروبا بالانتاج الفلسفى للصين ، فحاولوا أن يعرفوا من أين استلهموا حكمتهم ، ومن هم أساتذتهم الاول ، فتوصل جوجين الى أن منبع حكمتهم كانت مصر القديمة ، لان الصين القديمة خضعت للغزو الفرعونى فى بدء تكوين مدينتها « يرجع الى
Joseph de Guignes, Mémoire dans lequel on prouve que les Chinois sont une colonie Egyptienne, 1949.

(٤) يرجع الى — Etiamble, Connaissons-nous, la Chine, 1964, p. 15 .

(٥) ويقال أنه حينما حكم مقاطعة « جو » Chu أحدالغزاة الاجانب ، كان يتباهى بأنه لا دخل له بتقاليد الصينيين، لانه « أجنبى » أى « بربرى متوحش » ، تربى سلفه بين أحضان النمور وأرضعته ثديها يرجع الى
George Catin, A History of Political Philosophers, 1950, p. 17»!

والى عهد قريب كان يغضب الاوروبيين من لفظ (بربرى) الذى كان يصر الصينيون على وصف الاجانب به ، وخاصة فى معاهداتهم ، فكانوا يحتمون قبل توقيعها ازالة كلمة (بربرى) من المعاهدة . ولقد روى الاستاذ جيلز ، الذى أجهد نفسه فى تحليل فلسفة الصين القديمة ، ان زميله العالم الصينى الذى ساعده فى ترجمة الفقرات التى انتقاها من الادب الصينى ، قد أرسل له بيتا من الشعر يمتدحه فيه ،ويقول له : الحمد لله أن توصل أحد البرابرة الى هذا المستوى الرفيع من الادب ، الذى توصلت اليه الصين القديمة (أم الامم) منذ قديم الازل ، وفيما يلى هذا البيت من الشعر : From of old ,Literature has illumined the nation of nations and now its influence has gone forth to regenerate a barbarian official.

(٦) ويقال مثلا أن من أهم الآثار المكتوبة على ورق البردى ، التى لم يعثر عليها المكتشفون حتى الآن ، قانون « تحوت » ، الذى كان ساريا فى مصر العليا (الدلتا) ،حيث أتلفت فيضانات النيل كل البرديات التى كانت موجودة فى أراضيها ، ويقال أن تدوين قانون تحوت على ورق البردى كان أول عمل استخدمت فيه الكتابة . (يرجع الى مصر القديمة للاستاذ سليم حسن ص ٧ والى تاريخ القانون للاستاذ الدكتور شفيق شحاته ص ١١ والى الفصل الذى كتبه سير هارولد أدريس بل فى كتابه — الهيلينية فى مصر —والذى تحدث فيه عن البرديات فى مصر ، وبالنسبة لالواح الطين فى بلاد النهرين فقد انتقد الكثير منها بسبب الحروب ويرجع فى ذلك الى بحثنا « جوانب الفكر الادارى عند العراقيين القدامى » عدد مجلة الادارة يناير ١٩٧٤ .

(٧) الغريب أن هذا يتفق وما حققه الانثربولوجيون ،فقد أثبت الاستاذ جيمس جان ، أن عمر الارض يرجع الى

تحدثوا فيه عن أباطرتهم التى كانت تحكم فى السماء بعد أن تم خلق الدنيا حسب تصورهم لكيفية خلقها ، ثم عن خلفائهم الأباطرة السماويين الذين نزلوا الى الأرض يحكمون فيها ، ثم عن الأباطرة الأرضيين الذين تولوا حكم الناس بعد ذلك حينما تفرقوا شيعا فى الأرض(١) ، فحديثهم كله عن الحكم والادارة ، عن الذين ساسوا والذين سيسوا ، الذين اداروا والذين اديروا ، ففلسفتهم بذلك تدور كلها حول السياسة والادارة .

على أن الباحث فى الفكر الادارى المقارن عند قدامى المصريين والعراقيين والصينيين — باعتبار مدنياتهم من أقدم مدنيات العالم ، التى أقامتها فى كل من بلادهم ادارة عامة واعية ، لن يخطىء فى اكتشاف خلاف فى جوهر النظم الادارية فى هذه المدنيات ، رغم أنها نبعت كلها على ضفاف الأنهر ومن محيط القرى(٢) ، ذلك أنه بينما جاءت مظاهر الادارة العامة فى المدنية المصرية القديمة والمدنية العراقية القديمة ، مغلفة تعاليمها بأساطير مليئة بالخيال ، وعلا فيها آلهة بلاد النيل وآلهة بلاد دجلة والفرات على الانسان القاطن فى أرض هذه البلاد(٣) ، اذا بتيوقراطية الحكم النابعة عن سلطة الدين على الادارة العامة ، لم تكن ظاهرة بوضوح فى مدنية الصينيين القدامى ، لأنهم أعلوا فى الواقع فى فلسفتهم قيمة الانسان على كل ماعداه ، وكادت بذلك أن تخلو أساطيرهم القديمة — التى لم تنج من الخيال أيضا — وكذلك نتاج فلاسفتهم الغزير — الذى جاء محكما فى صياغته — من سير الالهة ، ولم يشغلهم فى فلسفتهم الا الانسان والمجتمع ، فدار حديثهم فى أغلبه عن كيف يحكم الانسان ؟ وكيف يدار المجتمع ؟ ثم لم تنسب الحكمة عندهم الى اله من الالهة ، بل الى فلاسفة من البشر ، معنيين بذواتهم ، عاشوا بين أهلهم ، يتكلمون معهم وينصحونهم ، ويستمعون اليهم ويسمعونهم آراءهم ، ويناقشون أقوالهم فيجادلوهم فيما هو صحيح وما هو خطأ ، فيما هو ردىء وما هو حسن ، فيما علا فيه فهمهم وفيما غمض عليهم فهمه ، فكانت الفلسفة فى الواقع عند هؤلاء الصينيين هى محور مدنيتهم(٤) .

وحينما يقول بعض علماء الغرب أن المقدرة الادارية "The administrative ability" قد برزت أصلا فى عالم الفلسفة ، من عند أفلاطون (٤٢٨ ق.م — ٣٤٧ ق.م) ، اذ وضحت مناداته للفلاسفة فى كتابه الجمهورية (Plato's Republic) ليتولوا زمام الحكم والادارة ، باعتبارهم أكثر الناس

٢٠٠٠٠٠٠ر٢ مليونى عام (يرجع الى (James Jean in the Universe Around as, 439, p. 19.
و رجع كذلك الى (Arnold J. Toynbee, A Study of History, 1962, p. 173).

(١) يقول الصينيون ان الذى خلق الدنيا هو انسانهم الاول « بان كو » "P'Anku" الذى خلقته الفوضى ، وهو الذى نحت العالم من حجر الجرانيت بأزميل ومطرقة ، وظل يكدح فى ذلك ثمانية عشر ألف عام ، حتى سبح العالم فى الفضاء ، فلما أنجز عمله هذا مات ، ولما مات تحول رأسه الى جبال ، وتنفسه الى رياح وسحب ، وصوته الى رعد ، وعينه اليسرى أصبحت الشمس ، واليمنى أصبحت القمر ، وتحولت لحيته الى نجوم ، ودمه الى أنهار ، وشرايينه وعضلاته الى طبقات أرضية ، ولحمه الى تربة ، وجلده وشعره الى نباتات وأشجار ، وأسنانه وعظامه الى معادن ، ونخاعه الى لآلىء وأحجار كريمة ، أما الطفيليات التى كانت فى جسمه فقد أصبحت أصل النوع الانسانى . ثم يحدثوننا بأنه قد توالت بعد « بان كو » عهود أشقاء ثلاثين هم (الاباطرة السماويون) ، وذلك حين كانت الناس تعيش فى براءة ، وحكم كل امبراطور منهم ثمانية عشر ألف عام ، وجاء بعدهم حكم (الاباطرة الارضيين) ، وهم الاحد عشر أخا ، الذين تولوا تهذيب الجنس البشرى ، ثم من بعدهم جاء (الاباطرة البشر) ، الذين قسموا العالم الى دول فتشيع بذلك الناس الى أمم .. الخ » . « يرجع الى أصول الحضارة الشرقية تأليف فبر سرفيس وترجمة رمزى يس ومراجعة الدكتور أنور عبد العليم ١٩٦٠ ص ١٢٥ وما بعده » . ورغم ما فى التاريخ الميثولوجى للصين القديمة من تتابع وتناسق للاحداث ، الا أن المعول عليه عند المؤرخين ، لا يبعد زمنه عن عام ٣٠٠٠ ق.م « يرجع الى China in Translation Selected Articles, 1952, 1956.

(٢) The Encyclopedia Americana, 1962, Vol. 7, p. 27.

(٣) يرجع الى بحثنا « الالتزام بالواجب عند المصريين القدامى » مجلة الادارة عدد يوليو ١٩٧٣ ، وبحثنا عن « جوانب الفكر الادارى عند العراقيين القدامى » — مجلة الادارة — عدد يناير ١٩٧٤ .

(٤) ومع ذلك يجب أن نقرر هنا أنهم كأى شعوب الارض ، التى بكرت فى المعرفة الانسانية ، قد تطلعوا الى السماء يستلهمونها السداد ، واذا كان الصينيون لم يحاولوا أن يتفلسفوا فى عالم الميتافيزيقيات ، عالم ما وراء الطبيعة ، فقد شعروا برهبة السماء فاعتبروها مصدر قوة الشعب وسلطانه وصوروا ارادة الشعب على أنها من ارادة السماء (يرجع الى Paul Jonet, Histoire de la Science Politique, Tome I.

استعدادا لهذه المهمة(١) ، حينما يقولون ذلك انما يغمطون بلا جدال حق كونفوشيوس (٥٥١ ق.م — ٤٧٩ ق.م) المعلم الأكبر (The Great Master) للصينيين ، (وأول الفلاسفة السياسيين (The First Political Philosopher) فى العالم كله بلا منازع(٢) ، ذلك أنه أول من وضع برنامجا متكاملا لبناء المقدرة الادارية للدولة البيروقراطية (Bureaucratic State) (٣) ، وأول من طالب العلماء والفلاسفة بأن ينزلوا الى ميادين الادارة العامة ، ليثبتوا للشعب جدارتهم على تصريف أموره وحل مشاكل الناس(٤) ، ثم هو أول من حاول أن يبنى عن طريق المنطق والفلسفة « دولة الرفاهية (Welfare State) فى بلده .

والتاريخ يذكر أنه حينما انتشرت تعاليم المدرسة الكونفوشية (Confucian School) أصبحت فى الشرق الأقصى تمثل احدى العقائد الدينية الهامة (Confucianism) التى دارت دراستها حول عالم الانسانيات (Humanities) اذ لم يشغلها فى الحكم والادارة بأكثر من أمرين : الانسانية والحب . ولهذا فان رجال الدولة الذين غذتهم هذه المدرسة بتعاليمها ، ترعرعت معرفتهم الادارية داخل اطار علم الأخلاق(٥) ، وبذلك ظلت تعاليم هذه المدرسة محتفظة بمعالمها على طول خمسة وعشرين قرنا ، فلم توهن ولم تتزلزل قوائمها ، لأن محور فلسفتها كانت ترمى الى خلق المواطن الأمثل ، المتحلى بالفضيلة الحقة والراغب فى أن يبنى أخلاقه بنفسه ، ويساعد غيره على بناء نفسه ، وهذ هو الأساس الذى تحقق به لشعب الصين التناسق داخل الأسرة ، والنظام داخل الامبراطورية ، والرغبة فى السلام مع العالم كله . من كل هذا عظمت قيمة رواد هذه المدرسة فى عالم الأخلاق ، فأصبح هؤلاء الرواد ليسوا معلمين لمواطنيهم الصينيين فحسب ، بل صاروا فى الواقع رسلا للاصلاح(٦)، ولا غرو فى ذلك ، فقد كان قدامى الفلاسفة بالنسبة لشعوبهم بمثابة الأنبياء المرسلين(٧) .

ومع كل هذا فان كثيرا ما يتجاهل علماء الادارة العامة المهتمون بنتاج الفلاسفة ، قيمة الفلسفة الادارية لأهل الصين القدامى ، ولا نخال أنه

---

(١) يرجع الى
— Newton P. Stallhnecht and Robert B. Brumbough, The Compass of Philosophy, 1954, p. I.
-- George Catin, A History of Political Philosophers, 1950, p. 18.

(٢) يرجع الى

(٣) يرجع الى
— Lucian W. Pye, The Spirit of Chinese Politics, A Psychocultural, study of the Authority Crisis in Political Development, 1968, p. 12.

(٤) كان هذا ردا على فلسفة « لو — دزه » أكبر فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس، ومؤسسى مذهب الدوبين (Taoism) والذى يعتبر المعلم الاول (The Great Master) للصينيين ، وأن سلم لكونفوشيوس بأنه المعلم الاكبر (The First Master) ذلك أن « لو — دزه » كان لا يرى — كما سنوضح فيما بعد — فى العلماء والفلاسفة الصلاحية الكافية لحكم الناس، فباعد فى فلسفته بين مناصب الادارة العامة وبينهم .

(٥) أننا أيضا لا نقر أن يسند الى « سقراط » أستاذ « أفلاطون » انه مؤسس علم الاخلاق ، « يرجع الى تأملات فى فلسفة الاخلاق — للمرحوم فضيلة الاستاذ الشيخ منصور رجب ، ١٩٥٥ ص ٣٢ » . ذلك أن « سقراط » كان مولده بعد موت « كونفوشيوس » ، اذ ولد عام ٤٧٠ ق.م وتوفى عام ٣٩٩ ق.م ، ولانه اذا كان هناك داع لاسناد كلمة (مؤسس) لعلم الاخلاق ، فأولى بها « كونفوشيوس » .وهذا لا يغمط من قيمة « سقراط » ، ففلسفته لا شك كان لها أثرها الواضح فى التربية الاخلاقية ولكن «كونفوشيوس» كان أول من اقتحمت آراؤه هذا الميدان بجرأة وشجاعة وفى صورة متكاملة ، فحق له هذا اللقب ، لانه لا جدال كما يقول بحق الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب : « ان فلسفة كونفوشيوس تستمد مادتها من الاخلاق ، فقد كانت الاخلاق غايته السامية وهدفه المنشود » ، « يرجع الى مؤلفه — تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ١٩٥٢ ص ٤٧ » .

(٦) "In short, Confucius and his followers, taught moral self-cultivation and social and political order through moral efforts. They were not only teachers, however, but people primarly devoted to reforms". "See, A New Survey of Universal knowledge, vol. 6, p. 387.

(٧) — "See, Benetto Groce, Politics and Morals, Translated from Italian by Salvator J. Castighon, 1946, p. 7.

حينما طالب عالم الادارة العامة الأمريكى هاتشنزن أن يتبه طلبتها للتاريخ أولا وأخيرا ، ليتعلموا من بين طياته فلسفة الادارة العامة ، وتجاهل فى كلامه أمر الشرق القديم وفلاسفته ونظمه ، ونادى بأن تبدأ دراسة فلسفة الادارة العامة من عند الفلسفة العملية (Practical Philosophy) التى أحسن سبكها أفلاطون وأرسطو ، وحتم أن يتذاكرها طلاب الجامعات الراغبون فى التزود بالمعارف الادارية ، لأنها من نوع الفلسفة التى لا يمكن تحصيلها الا بواسطة الأساتذة ، ليحلوا للتلاميذ ما غمض عليهم من أمرها ، ولأنها لا يمكن أن تحصل معرفتها فى أوقات الفراغ العادية ، أو أثناء تزاحمنا على أعمالنا اليومية ، أو كما ذكر بألفاظه (١) ،

(The Hurly Parly of Practical Life)

لا نخال أن الأستاذ هاتشنزن كان قد اطلع قبل ادلائه بهذه الأقوال على نتاج فلاسفة الصين ، أو كان قد درس بعناية — وعلى الأخص — نظرية كونفوشيوس فى تكوين المقدرة الادارية للمسئولين عن ادارة شئون الشعب .

وانا لنتساءل كيف يهمل بعض علماء الادارة العامة هذه النظرية ، وكونفوشيوس هو القائل فى فلسفة الادارة العامة الحكمة التالية ، التى يستحق عليها بمفردها أن نضعه بلا منازع فى قمة قائمة الفلاسفة الاداريين "The administrative philosophers" ذلك اذا أردنا أن ننصفه كما أنصفه بعض فلاسفة السياسة ، فوضعوه على قمة الفلاسفة السياسيين . فهذا المعلم حينما أراد أن يوجه نظر الأباطرة والملوك والحكام والناس جميعا ، لكيفية بناء مقدرتهم الادارية ، قال لهم : « ان قدامى الأباطرة الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أرجاء الامبراطورية ، قد اتجهت آراؤهم أولا لتنظيم ولاياتهم ، فلما أرادوا أن يحسنوا تنظيم هذه الولايات ، لم يجدوا من ركيزة لذلك الا فى تنظيم أسرهم ، فلما أرادوا تنظيم أسرهم ، انشغلوا قبل أى شىء بتهذيب نفوسهم ، فلما أرادوا تهذيب نفوسهم مهدوا لها بتطهير قلوبهم ، فلما أرادوا تطهير قلوبهم ، حزموا أمرهم فى أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، فلما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، لم يسفعهم فى ذلك الا توسيع دائرة معارفهم فبحثوا عن حقائق الأشياء ، فلما اهتدوا لحقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، فلما كمل علمهم خلصت أفكارهم من الشوائب ، فلما خلصت أفكارهم من الشوائب تطهرت قلوبهم من الأحقاد ، فلما تطهرت قلوبهم من الأحقاد تهذبت نفوسهم فى المعاملات ، وبذلك أمكنهم بعد كل هذا الجاهد أن ينظموا فعلا أسرهم ، فلما انتظمت بذلك شئون أسرهم ، صلح حكم ولاياتهم ، فلما صلح حكم ولاياتهم ، حققوا بذلك للامبراطورية رفاهيتها ، وأصبحت الحياة فيها هادئة سعيدة(٢) .

لقد رأى بحق كونفوشيوس ، أن لاسبيل للقضاء على الفوضى الأخلاقية التى كانت قد تفشت فى بلاده ، الا باصلاح النظام الأسرى فى المجتمع ، لأن أساس المجتمع فى نظره هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة . ولقد آمن الناس معه بأن لا صلاح للفرد الا بصلاح سلوكه ، فكأنه كما يقول بحق علماء السياسة : « قد نادى بالنظرية القائلة بأن الرقى الذاتى هو أساس الرقى الاجتماعى ، وانه اذا أحسن الفرد حكم نفسه استقر النظام فى الأسرة ، وبذلك تصلح الدولة ويسهل حكمها ، فالسياسة اذن فى نظره جزء من الأخلاق »(٣) .

والحق أن كونفوشيوس قد أراد لدولته التى خدمها بفلسفته درجة من الرشد والكمال الخلقى لم ينشدها أحد قبله ، وكان تمسك خلفائه

---

(١) يرجع الى "See, Robert Hutchins, Shall We Train for Public Administration, Impossible ! Public Administration Review, The Maxwell School of Civilization and Public Affairs, Syracuse University, Mars, 1938.

(٢) يرجع الى Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. 4. "Confucious".

(٣) الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب — تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية — ص ٤٧ .

بتعاليمه ، سببا فى أن ينعتهم شعبهم بأنهم حمـــاة التراث الثقافى للامبراطورية الصينية(١) .

ومن حقنا أن نقرر هنا أن نواحى المعرفة الادارية التى جاد بهـــا علينا فلاسفة الصين القـــدامى ، تصلح بلا جدال لأن تكون منهاجا للمعرفة فى علم الادارة العامة الحديث التكوين ، ذلك أن كل علم ، وكل فن ، وكل نشاط تطبيقى ، لا بد أن يكون له معرفة خاصة به ، هى من نوع المعرفة المهنية (Technical knowledge) **يجب** أن تجمع ظواهرها منذ ظهرت مختلطة بغيرها من المعارف ، لتدرس لمن يرغب فى الحصول عليها، تسهيلا على الدارس من تحمل أعبـــاء البحث عنهـــا .

هذه المعرفة هى ضريبة الذين نضجوا قبلنا (Rationalists) ، للذين يسعون الى الرشـــد (Rationalism) بعدهم . وهذا هو عطـــاء السابقين للاحقين .

والمعرفة المراد تعليمها لا تمنع من تلازم معرفة أخرى لها ، يطلق عليها العلماء المعرفة العملية (Practical knowledge) وهى من نوع المعرفة التى لا غنى لها عن قيام من أراد أن يكتسبها ، بالعمل فى الميدان التطبيقى للمعرفة الأولى ، حتى يمكنه أن يجرب المعلومات التى استقاها ، فيخطىء فى استخدامها مرة ويصيب أخرى ، وبذلك يتمكن أن يكسب لنفسه المهارة اللازمة لاستخدام المعرفة الأولى التى تعلمها ، اذ يكرسها لصالح تلك المعرفة المهنية التى اســـتقاها من السابقين ، حتى يصقل نفسه ، ويكسب المهارة فى الأداء التى لا يمكن أن يمنحها له آخر .

وكلتا المعرفتين المهنية ، والعملية ، تكونان جناحى المعرفة الانسانية ، التى يحتاج اليها كل علم وكل فن وكل نشاط تطبيقى ، والتى لا يحوزها الا الانسان الذى تعـــلم والذى أكمل علمـــه بالتجربة(٢) .

لهذا فان الناس الذين يعملون فى حقل الادارة العـــامة ولم يدرسوا علمها ، ينعتهم علماؤها بالهواة (Amateurish) ، وهم الذين يؤدون عملهم بالفهلوة ، وهؤلاء قد ينجحون ، ولكن ليس فى كل الأمور ، بل فقط فيما تصلح فيه الفهلوة ، أو يسعدهم فيـــه الحظ بالمصادفة(٣) . وكذلك الذين يتعلمون الادارة العامة دون أن يزاولوها ، لن يكونوا أكثر من نظريين ، لم تصقلهم الممارسة بالخبرة ، التى تجعلهم ينطقون عن وعى بمـــا ينطقون ، فيظلوا يرددون المبادىء التى حفظوها، دون قدرة على تطبيقها ، فكأنهم ماسورة مياه ، وليسوا شريان حياة .

ولا نخالنا ونحن نتكلم معك عن كونفوشيوس ، أن هذا الفيلسوف كان عالمـــا بعيدا عن التجربة ، بل بالعكس فقد طبق فلسفته عندما عين وزيرا للعدل فى مملكة (لو ـــ Lu) ، فقضى على الجريمة قضاء مبرما ، ومعنى ذلك أنه وجـــد طريقه ليلزم ذاته بمبـــادئه ، فنقى نفســـه من شهوات الدنيا ، قبل أن يأمر غيره بتنقية نفسه من شهواتها ، وكان يردد دائما قوله ، اذا لم أتفاعل مع الناس فمع من أتفاعل ؟(٤) .

ولأجل أن ندلل على مدى أهمية المعرفة التى أهداها الينا فلاسفة الصين القدامى للدارسين المعاصرين للادارة العامة ، وقبل أن نحلل ما فى آرائهم التى نرغب فى الاشارة اليها ، نحب أن نبرز هنا ، أن أى دارس فى العلم الحديث للادارة العامة ، لا يمكنه أن يفصل معرفتها عن ثلاثة موضوعات :

---

(١) يرجع الى Harold A. Lasswell and Harlan Cleveland, The Ethic of Power, The Interplay of Religiongion Philosophy and Politics, 1962, p. 77.

(٢) يرجع الى Michael Oakeshott, Rationalism In Politics, 1962, p. 7.

(٣) L. Urwich, The Elements of Administration, p. 7.

(٤) Geory Catin, A History of the Political Philosophers, 1950, p. 15.

١ ــ موضوع الدولة ، لأن الادارة العامة تمثل فى الواقع الدولة وهى متصرفة ، أو اذا رددنا ألفاظ العلماء الأمريكيين المعاصرين فان الادارة العامة تعنى باختصار الدولة أثناء تصرفها (State in action) (١) .

٢ ــ موضوع الحكومة ، وهى أداة الدولة فى التصرف ، اذ يقال أيضا ، أن الادارة العامة تعنى الحكومة حال أدائها لأعمالها ، أى (Government at work)

٣ ــ موضوع السلطة ، لأن اصطلاح الادارة العامة يستخدم أحيانا كاصطلاح مرادف للسلطة التنفيذية(٢) ، أو السلطة الادارية(٣) ، اذا ما أريد تضييق مجال الادارة العامة داخل هذه السلطة التنفيذية ، بحيث يسلم لهذه السلطة بأنها تشتمل على الحكومة والادارة معا(٤) ، أو كما يرى بعض علماء الادارة العامة الحديثين ، أنها تظهر فى السلطات الثلاث ، لأنها لا تفرض وجودها على السلطة التنفيذية فحسب ، بل هى كذلك لها شأنها مع السلطة التشريعية والسلطة القضائية أيضا(٥) .

تعالى معى نستشف اذن ما قاله فلاسفة الصين عن هذه الموضوعات الثلاثة ، الدولة وهى تتصرف ، والحكومة وهى تعمل ، والسلطة وهى تزاول ، ما دام هذه الموضوعات هى التى يقرر علماء الادارة العامة المعاصرون ، سواء كانوا من أهل السياسة ، أو من أهل القانون ، أو من أهل الاجتماع ، انها تحوى فى معناها الادارة العامة ، بل من هذه الموضوعات قد اشتقت بالفعل أغلب تعاريف الادارة العامة الحديثة .

لقد تكلمت آنفا عن النظرية الكونفوشية لبناء المقدرة الادارية للدولة . ان كونفوشيوس كما رأينا ، يرى أن الدولة مجموعة من الأسر ، واذا أحكم بناء الأسرة أحكم بناء الدولة ، واذا أريد بناء الأسرة ، فيجب أن تبنى على مكارم الأخلاق . فهل جاءت تعاليم السماء فى أديان التوحيد بما يخالف ذلك !! ان الخلق المتين كان أساس الدولة العبرانية ، فقد صنع الله سبحانه وتعالى كليمه موسى على عينه ، وأنزل التوراة ليهدى به الناس ، وحينما أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله عيسى عليه السلام ، الذى دعا الناس الى الخير والرحمة والتسامح ، جعل فى تعاليم الانجيل كل هذه المعانى ، ثم ان الخلق القويم هو دعامة الاسلام الذى أتى به محمد عليه صلوات الله ، وأنزل عليه القرآن الكريم ممتدحا فيه خلقه : « وانك لعلى خلق عظيم » . فلا عجب اذن أن نجد كونفوشيوس يحتل فى نفوس الصينيين نفس مكانة الأنبياء ، وهم الذين لم يؤمنوا بأى دين من الأديان ، فنصبوا « الكونفوشية »(Confuncianism)أهم أديانهم ، بجانب « التاوية » (Taoism) « والبوذية » (Buddhism)

على أن حديث كونفوشيوس ، عن الدولة ، والحكومة والسلطة والمجتمع وادارة الناس للناس ، جعله أقرب الى الفلاسفة منه الى الأنبياء .

لقد كان يرى كونفوشيوس أن العالم فى حرب ، لأن الدول التى يتكون منها هذا العالم فاسدة فى حكمها .

فكيف اذن يصلح كونفوشيوس من فساد الحكم ؟ كما سبق أن نوهنا ، أنه يرى أن ذلك يكمن فى الناس أنفسهم . هم لا يكشفون عن

E. Dimock, Modern Politics and Administration, 1947, p. 30.

(١) المرجع السابق ص ٣٠ كما يرجع الى
D. R. Schadeva and Vidya Bhushan, An Introduction to Public Administration 1963, p. 3.

(٢) أستاذنا الدكتور عثمان خليل ــ التنظيم الادارى فى الدول العربية ، ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ ص ٥

(٣) الاستاذ الدكتور محمد فؤاد مهنا ــ القانون الادارى المصرى والمقارن ــ الجزء الاول ــ المرافق العامة ١٩٥٢ ص ١ .

(٤) يرجع الى الاستاذ الدكتور محمد طه بدوى والاستاذ الدكتور مصطفى أبو زيد فهمى ــ الادارة العامة ــ نشاطها ونظمها ــ ١٩٥٩ ص ٥
Felix A. Nigro, Modern Public Administration, 1966, p. 25.

(٥) يرجع الى

عيوبهم ، ومغرمون بستر أخطائهم ، ولا يريدون أن يكشفوا عن سريرتهم ، ولهذا فهم غير أمناء فى تفكيرهم ، وفاشلون فى تطهير أنفسهم ، وما دام الناس فاشلين فى تطهير أنفسهم ، فستظل قلوبهم مطوية على الشر وخلوا من الرحمة والشفقة ، وسيظلون مخادعين فى معاملاتهم مع الناس .

ويرى كونفوشيوس أن لا قية للقوانين الوضعية التى توضع لاصلاح الناس ، ما دامت قلوبهم خالية من الرحمة والشفقة ، وما ظلوا مخادعين فى معاملاتهم لبعضهم البعض ، وما ظلت نفوسهم تتطلع زيفا الى ملذات الحياة . ثم هو يرى أن العقاب الشديد الرادع لن يفيد فى تنظيم أمور الدولة ، بقدر ما قد تصلحها تلك القوة الصامتة ، الكامنة فى أنفسهم ، اذا ما هذبوها وأصروا على أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فالقدوة الحسنة عنده هى التى تعين على تنظيم الأسرة ، والأسرة عنده لا تنظم الا بتحصيل المعرفة والاخلاص فى المعاملة ، ويرى أن هذا هو الكفيل بتهيئة نظام اجتماعى للدولة ، يتيسر معه قيام الحكم الصالح ، وليس على الدولة من مهمة بعد ذلك بأكثر من أن تحافظ على الهدوء فى أرضها ، والعدالة فى جميع أرجائها .

ولم يكن كونفوشيوس رجلا ثوريا يستبيح أن يصلح الناس بالعنف ، اذا ما أعجزهم الاصلاح بالمنطق ، كان فى ذلك على عكس خليفته فى المكانة وزعيم مدرسته من بعده مانشيوس ، الذى كان لا مانع فى رأيه ، من عزل الأمير والوزير وأى مسئول اذا أعيا الشعب اصلاحهم بالنصح ، ذلك أن كونفوشيوس كان يعتقد بأن الذين ترفعهم الثورة الى مراكز الحكم ، لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكن هذا لم يقلل من شدة تعلقه بالشعب وتقديره لقوته ، فلقد كان يحتم تجسيم السلطة فى يده ، لأنه كان يرى فيه مصدر السلطة الحقيقى ، ولهذا فانه كان مؤمنا ، بأن الحكومة التى لا يمكنها أن تحتفظ بثقة الشعب ، لابد أن تسقط ان عاجلا أو آجلا .

ونظريته عن أسلوب بنيان مجتمع الأمة ، ينحصر فى ضرورة اقامة هذا البنيان على الطاعة ، فلا بد من التشدد فى أن يطيع الولد أباه ، والزوجة زوجها والمواطن حاكمه ، وبخلاف هذه الطاعة تتعرض البلاد الى فوضى مدمرة . ولكنه مع ذلك سبق الاسلام فى حكمته « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، اذ يبيح أن يقاوم الابن أباه ، وأن يقف الوزير فى وجه مليكه ، اذا ما كانت أوامرهما جد خاطئة .

وكان كونفوشيوس مغرما بسياسة الباب المفتوح فى ادارة أمور الدولة . كان يعجبه من كل الملوك الذين حكموا الامبراطورية والم هوبتاريخهم، ذلك الملك « يو » الصالح (The Good Yao) الذى حكم مقاطعة « جونج — جوو » ، وظل فى حكمه ما يقرب من مائة عام ، وهو الذى ينعته بأنه كان رحيما كالسماء ، حكيما بصيرا كالآلهة ، غنيا فى غير زهو ، عظيما فى غير ترف . فهذا الملك حينما أراد أن يصلح حكمه ، استخدم سياسة « الباب المفتوح » بطريقة سهلة . اذ وضع خارج قصره « طبلة » (drum) وكان لكل مواطن الحق فى أن يقرعها ، ليهرع اليه ويسمع شكواه ، ثم كان يضع خارج قصره (سبورة) يدون عليها الناس نصائحهم لاصلاح الحكم .

ولقد كان يرى كونفوشيوس أن الحكومة ينحصر واجبها فى ثلاثة أمور ، أولها أن توفر للناس حاجتهم من الطعام ، وثانيها أن تهيئ لهم من العتاد الحربى ما يمكنهم أن يعيشوا مطمئنين من غارة البرابرة (الأجانب) ، وثالثها أن تخلق الثقة فى نفوس المحكومين للحكام . فلما سأله أحد تلاميذه : أى الثلاث مهام يمكن للشعب أن يستغنى عنها ، فأجاب أن أولى المهام التى يمكن الاستغناء عنها هو العتاد الحربى ، لأن الناس مفروض أن يعيشوا فى سلام ، اذ كان يقر فى تعاليمه مبدأ الانسانية العالمية ، ويحلم بقيام دولة لكل شعوب العالم ، يسودها الوئام . فلما سأله تلميذه ثانية أى الأمرين الآخرين ، يمكن

الاستغناء عنه ، فأجابه الطعام ، لأن الموت حق على جميع الناس ، وليس فيه ما يخيف أحدا ، أما المهمة الثالثة وهى خلق الثقة فى نفوس الناس نحو حكامهم ، فقد رفض بشدة الاستغناء عنها ، لأنه كان يرى أنه اذا لم يكن للناس ثقة فى حكامهم فلا بد أن تختفى الدولة من الوجود(١) .

لقد صارت العقيدة الكونفوشية ، الدين الرسمى للدولة الصينية بالنسبة لشمال الصين ، الذى يخترقه نهر « هوانج هو » (Hwang-Ho) وكشأن اى فيلسوف ، ورغم ما تمتع به كونفوشيوس من شهرة واسعة ، فانه مات متحسرا ، اذ يقال انه فى آخر أيامه لم يتمكن من الاحتفاظ بمركزه ، لدسائس البلاط الامبراطورى ، فكان يردد ، أنه كان يتمنى أن يجد الامبراطور ، الذى يستمر فى الاستماع لنصحه ، ويعمل على نشر آرائه فى التربية والتعليم ، ليموت مستريح البال »(٢) .

ولقد وجد من يناوىء كونفوشيوس فى آرائه قبل موته وبعده ، ولكن اشتدت المناواة بعد موته ، فظهر من ادعى عليه بأنه كان مخربا لعقلية النشء ، حتى أن أحد أباطرة الصين قد أمر بأن يحرق كل ما دونه التلاميذ عنه ، وحرم على الناس استذكار حكمه . ولكن الأوراق يمكن أن تحرق ، والفكر يمكن أن يدوم ، بل كثيرا ما يكون النار وقودا وتزكية للفكر ، وكم من خناجر ومسدسات ومدافع صوبت لصدور أصحاب الرأى ، فصدأت كلها وتكسرت وزالت من الوجود ، وبقى الفكر المتلألىء أشد لمعانا . ولقد عادت فلسفة كونفوشيوس بعد هذا الامبراطور كأقوى أثر فى مجال التربية فى الصين القديمة والحديثة ، وتبناها من بعده تلاميذ جدد أخذوا على عاتقهم نشرها ، فحفظوا آراءه ورتبوها ونشروا فلسفتها فى كل أرجاء الصين . وكان أكثر من جاءوا بعده حافظا لقيم فلسفته هو الفيلسوف مانشيوس الذى جاء بعد قرنين من زمانه .

لقد كانت آراء مانشيوس حرة منطلقة ، فنادى كما نادى أستاذه كونفوشيوس ، بالسيادة المطلقة للشعب ، ورأى فى ارادة الشعب كما سبق ونوهنا تعبيرا عن ارادة السماء .

وبالنسبة لأمبراطور الصين ، فان مانشيوس لم يكن يراه بأكثر من مفوض من الشعب بمزاولة سلطاته السياسية ، ولهذا فلا يحق له أن يجعل الحكم وراثيا فى أولاده ، لأن الشعب لم يفوضهم، فاذا أراد الامبراطور أن يعين أحد أولاده خلفا له ، فقد أباح مانشيوس أن يتقدم برغبته هذه الى الشعب وكيل السماء على الأرض ، ليقر اختياره من عدمه ، وكان يردد فى ذلك قولا منسوبا لأستاذه كونفوشيوس بأن السماء ترى ، ولكنها ترى بعين الشعب ، والسماء تسمع ولكنها تسمع بآذان الشعب .

ولقد كان أكثر ما يؤلم مانشيوس ظلم الوزراء للشعب ، وشكا كثيرا الى الأباطرة والأمراء من طغيانهم . وحينما أغلقوا آذانهم ، وجه اللوم اليهم ، والى الأمراء مذكرا اياهم ، بأنهم انما يدفعون الناس كرها الى ارتكاب الجرائم بدافع الفقر والحاجة ، التى يعيشون مكبلين فيها ، والذين لم يفلحوا فى معالجتها . وكان دائم التذكير للأمراء بقول أستاذه ، بأن الامبراطوريات ، يجب

---

(١) اذا أراد القارىء المزيد من المعرفة عن هذا الفيلسوف يمكن الرجوع الى

a — W. G. Old, Confucius, Book of History.
b — Lui Wu-Chi, A Short History of Confucisms Philosophy.
c — A. Walez, The Analects of Confucisms.
d — A. G. Creel, Confucius, The Man and Myth.
e — G. Legge, The Chinese Classics.
f — D. Will, The Story of Civilization.

(٢) هـ. ج — ويلز — موجز تاريخ العالم — ترجمة الاستاذ عبد العزيز توفيق جاويد — ١٩٥٨ ص ١٢ .

أن تقام على دعائم من الانسانية ، وتزول بزوال هذه المبادىء .

وتزعم مانشيوس حملة كبيرة ضد الفقر . فقد كان يرى أن الحاكم الفاهم لوجبات وظيفته ، لا يحاول أن يشن حربا على جيرانه ، بل يجب عليه أن يشن الحرب على عدو البلاد الأول ، وهو الفقر ، لأن الفقر يتسبب عنه الجهل وكلاهما يخلق سوء النظام ويؤديان الى ارتكاب الجرائم .

ولقد كان أهم ما يشغل بال مانشيوس ، هو توفير الحياة الهنيئة للناس ، واقامة حكومة صالحة على أكتاف أكفأ الرجال . وكان يرى فى الفلاسفة أنهم أحق الناس بمراكز حكمهم لأنهم أكفأ الرجال ، ولهذا طالبهم بتولى أمور الدولة ، وبأن يكونوا ملوكا وبأن يصبح الملوك فلاسفة ، لأن المشكلات الاجتماعية لا تثار بسبب معاملات الناس لبعضهم البعض ، ذلك أن الناس طيبون بطبعهم ، بل تثار بسبب فساد الحكومات ، ولهذا فيجب أن يقوم الحكم على أكتاف خيرة الناس .

ولقد كان مانشيوس على خلاف أستاذه كونفوشيوس ثائرا ، فلقد أباح فى تعاليمه اسقاط الحكم ، اذا لم يتمكن الحكام من اصلاحه . اذ يقال أن ملكا اعتذر له عن عدم استطاعته القضاء على المجاعة التى تتهدد اقليمه ، فرد عليه بأنه ينبغى عليه أن يعتزل العرش فورا ، لمن هو أقدر منه على تحقيق رغبات الشعب . ثم ان ملكا آخر ناقشه فى احدى الشكاوى التى كان قد رفعها اليه عن انحراف أحد الحكام ، فقال له : « ان من يسرق فردا ، نسميه لصا ، ومن يسرق العدالة نسميه طاغية ، واللص والطاغية فردان يستنكرهما المجتمع ، ولذلك يجب لفظهما خارج حدود البلاد » .

ولقد كان لمانشيوس نزعة اشتراكية مبكرة ، كان يرى أن الدولة يجب أن تدير أمور الانتاج ، بجانب ادارتها للخدمات ، وحصر نظريته فى أن الدولة عليها واجبان ، وهما تحقيق رفاهية الشعب وتسيير عجلة الانتاج(١) .

ولم يكن التعصب لحكم الفلاسفة هو شيمة كل فلاسفة الصين القدامى ، فان الفلسفة التاوية (Taoism) التى تنسب لأشهر الفلاسفة الصينيين قبل كونفوشيوس وهو « لو — دزه » الملقب عندهم بالمعلم الأول ، كانت هذه الفلسفة تناوىء منذ البدء حكم الفلاسفة ، لأن عقيدتهم تعنى فى جوهرها أن يعيش المرء بالطبيعة ، وأن تدار الدولة كما تدار الطبيعة ، وأن يترك تسييرها للانسان العادى الذى لا يكسب فلسفته بالعلم ولكن بالتجربة .

ولقد صارت « التاوية » دينا لأهل الجنوب من الصين ، وعملت معهم عمل السحر ، وانشغلوا بها كما انشغل الشماليون بالعقيدة الكونفوشية . ومصدر البحاث عن هذه العقيدة هو الكتاب الذى ينتسب صدوره الى « لو — دزه » ، والمسمى « الدو — ده — جنج » (Tao-Te-Ching) ، و « الدو » (Tao) لفظا تعنى الطريقة (The way) ، وهى أحيانا تعنى « طريقة الحياة (The way of life) أو طريق الطبيعة (The way of nature) المعنى الحرفى لهذا اللفظ هو الطريق ، وقد تبلورت تعليماتها فأصبحت تعنى « طريقة التفكير » ، أو « الامتناع عن التفكير » ذلك أن « الدويين » يرددون « أن التفكير أمر عارض سطحى لا خير فيه الا للجدل

---

(١) يرجع الى
Paul Janet, Histoire de la Science Politique.
ويرجع الى تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية للاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب ص ٥٥ وما بعدها ، كما يرجع الى
"Durant Will, The History of Civilization.
D. H. A. Giles, History of Chinese Literature.
"F. Hearth, Ancient History of China.
E.K.S. Labourette, The Chinese Their History and Culture.
كما يرجع الى النسخة المترجمة لكتاب (ديورانت ول) بمعرفة لجنة « التأليف والترجمة والنشر » والخاصة بالصين القديمة (ترجمة الاستاذ محمد بدران) .

والمحاجاة ، وأنه يضر الحياة أكثر مما ينفعها ، ولهذا فانهم يطالبون على غير ما يطالب به الكونفوشيون ، بنبذ العقل وجميع مشاغله وبالالتجاء الى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادىء ، اذ عندهم بالطبيعةوليس بالعلم تكتسب الفضيلة » .

وفى رأى « لو ــ دزة » ، أن السفلة قد ازداد عددهم من يوم أن انتشر العلم . ثم يرون أخيرا أن شر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها هو حكومة الفلاسفة ، ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ، وهم يرون أن الصعوبة التى يواجهها الحكام انما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ولهذا فمن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ، ينكل بها ويفسد شئونها . أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة .

ويؤسس « لو ــ دزة » نظريته فى خطورة صاحب الفكر على الدولة على أنه لا يفكر الا فى الأنظمة والقوانين ، فهو يرغب دائما فى اقامة المجتمع على قواعد هندسية ولا يدرك أن أنظمته هذه انما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية وما يتميز به أقرانه من نشاط وقوة .

ويقرر « لو ــ دزة » أن الرجل البسيط ــ فى نظره ــ الذى ينتج بكامل حريته ، ويكتسب مهارته بخبرته ، هو أقل من العالم خطرا على الأمة اذا ما تولى تدبير أمورها ، ذلك أن هذا الرجل لا يضع من الأنظمة ، الا أقل قدر مستطاع وأنه اذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيرا حكيما على نهج طيب رتيب خال من التفكير .

ويلجأ « لو ــ دزه » الى قانون الأشياء ، فيراه هو القانون العادل الذى يجب أن يخضع له قواعد السلوك ، اذا ما أراد الناس أن يعيشوا فى حكمة وسلام ، وقانون الأشياء عنده اذن هو « جوهر الطريقة التاوية » أو بمعنى آخر هو « الدو » أى « طريقة الكون » فكأنه خلق من قانون الأشياء قانونا للسلوك البشرى أو طريقا لحياة البشر .

وفى تأييد قانون الطبيعة الذى ينادى « لو ــ دزة » بأن يكون فيه ينبوع الحكم فى الدولة الصينية ، يقول الفيلسوف الأول للصينيين ، « ان الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم هنيئا سعيدا ثم ضل الناس (بالمعرفة) فعقدوا الحياة بالمخترعات ، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول الى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ عن ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة ، فالعاقل اذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى ، ويختفى وراء الطبيعة ، بعيدا عن المدن والكتب والموظفين المرتشين والمصلحين المفترين » .

وربما كانت الفكرة المثالية التى أعلت من قيمة « لو ــ دره » على المنادين بمبدأ « عش على غرار الطبيعة » والذين جاءوا من بعده ، وخاصة جان جاك روسو ، هى قوله « ان كل مافى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شىء ، وتؤدى واجبها دون أن يكون لها مطالب ، ثم كل الأشياء على السواء تعمل عملها ، ثم تراها تسكن وتخمد ، واذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها الى أصله ، وعودة الأشياء الى أصولها معناها راحتها ، وأداؤها لما قدر لها أن تؤديه ، وعودتها هذه انما فى ذلك قانون ازلى دائم ، ومعرفة هذا القانون هو الحكمة » .

ولقد سبق « لو ــ دزة » المسيحية فى فلسفتها حينما رسم للناس طريقهم فى الحياة مع بعضهم البعض بفلسفة فيها كل معانى السماحة اذ هو القائل « اذا لم تقاتل الناس فان أحدا على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الاساءة بالاحسان .. أنا خير للأخيار وخير

أيضا لغير الأخيار . وبذلك يصير الناس جميعا أخيارا وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضا لغير المخلصين ، وبذلك يصير الناس جميعا مخلصين . وألين الأشياء فى العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها .. وليس فى العالم شىء ألين أو أضعف من المـــاء ، ولكن لا شىء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية(١) » .

حقا لقد جربنا نحن المصريون حكمة هذا القول حينما صوبنا خراطيم مياه أبطالنا على خط بارليف فكان فى الماء حياة لأبطالنا أولى الألباب .

ما أغنى ما يحصل عليه المرء من تجواله بين أحضـــان الفلســـفة الصـــينية القديمة . ان للأوروبيين حقا حينما جالوا فى عصر الاستنارة (The Enlightment age)**حول معـــانى هـــذه** الفلسفة،فأعطتهم الكثير،ودلتهم على الكثير.يكفى ما نطق به الكونت كيسر لنج حين قال « لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الانسانية » .

ولقد نطق من قبله فولتير بهذه الشهادة التى تدل على عـــلو كعبهم فى الادارة العامة « لقد دامت امبراطورية الصين أربعة آلاف عام ، دون أن يطرأ عليها تغير يذكر فى القوانين ، أو العادات ، أو الفلسفة أو أزياء الأهلين ، وأن نظام هـــذه الامبراطورية لهو فى الحق خير ما شهده العالم من نظم » .

وحقا ما قاله أحد الفلاسفة الأوروبيون « لعل الرجل الصينى هو أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم » .

أن الأوروبيين استفادوا من فلسفة الصين الادارية فى عهد استنارتهم ، الذى بدأ مع ربيع ثقافتهم فى القرنين الثامن والتاسع عشر(٢) ، ومن العلماء من يقولون أن لكل دولة فى العالم الحديث، لا بد لها من عصر استنارة خاص بها(٣) ، فهل لنا أن نستفيد من فلسفة الصين القديمة ، وقد بدأ بالفعل عصر استنارتنا المشرق المعاصر . لعل هذا ما أرجوه .

---

(١) يرجع الى Durant Will, The Story of Civilization, Book Three, 1935.
والنسخة المترجمة بواسطة الاستاذ محمد بدران.ويرجع الى تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ص ٤٠ ومابعدها.
ويرجع الى المراجع الآتية : Paul Ganet, Histoire de la Science Politique, Tome I ;
H. A. Gides, History of Chinese Literature ; K.S. Latourette, The Chinese, Their History and Culture ; Pye Lucian, The Spirit of Chi nese Politics. zation, 1970 pp. 449 - 450."

(٢) يرجع فى تحديد معنى عصر الاستنارة (The age of enlightment) ، ومدى ما تميز به هذا العصر من النضج العقلى ، الى كتاب "James Edgar Swain, A History of World Civilization" فهو العصر الذى شهد مولد المدنية الغربية التى نراها اليوم.لقد بدأ من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر . انه العصر الذى تغذينا فيه بالفلسفة السياسية التى جاء بهـــاروسو (Rousseau) ومونتسكيو (Montesquieu) ولوك (Locke) والذى أنارفيه طرق العلم كوبرناكس (Copernicus) وجاليليو (Galileo) وهارفى (Harvey) ، والذى ظهرت فيه آداب شكسبير (Shakespeare) وميلتون (Milton) وموليـــير (Molière) ، والذى تمتعنا فيه بفلسفة ديكارت Decartes وسبنوزا (Spinoza) فكل هذا كان كعلائم الطريق الصحيح فى فكر الانسانية landmarks in History of Human thought
فهو العصر الذى حقق التقدم للاوروبيين فعلا ، والذى برز (The importance of human reason as basis of progress). للعالم فيه قيمة العقل الانسانى فى صنع التقدم »
والذى اختتم بانفجار الثورة الفرنسية ، التى كانت أولى الثورات العظيمة فى العصر الحديث .
Nicolas Berdyaw, The Meaning of History, 1945, p. 5.